

قضية رقم صفر

حمادة حامد محمود نور الدين

في الثامنة صباحًا، وجدتُ اسمي على جدول القضايا.

لم أندهش في البداية. أنا فؤاد عبد الستار، كاتب الجلسات في محكمة طنطا الابتدائية منذ واحدٍ وثلاثين عامًا، واسمي يمرّ على الأوراق كما يمرّ الماء تحت الجسر. لكنّه هذه المرة لم يكن في خانة الكاتب. كان في خانة المتّهم، تحت رقمٍ لم أرَ مثله في حياتي: «قضية رقم صفر». وفي خانة التهمة سطرٌ واحد بحبرٍ لم يجفّ بعد: «إخفاء سطر من محضر جلسة». والموعد الثانية عشرة ظهرًا.

لمستُ الحبر بإصبعي، فعلق به لونٌ أسود دافئ، كأن الورقة كُتبت قبل لحظة.

خرجتُ إلى الممرّ وفي يدي الجدول. كان الكاتب الشابّ ممدوح يمسك جدوله هو، فاستعرتُه من يده. تسع وثلاثون قضية. لا قضية صفر. وعلى مكتب رئيس القلم، جدول ثالث: تسع وثلاثون أيضًا.

«ما بك يا أستاذ فؤاد؟ وجهك أصفر.»

«لا شيء.» وطويتُ الورقة في جيبي كمن يخبّئ نقودًا مسروقة.

عدتُ إلى مكتبي لأعيد قراءتها، فانتبهتُ إلى شيءٍ ثانٍ جعل ركبتيّ تضعفان. الموعد صار الحادية عشرة والنصف.

بعد دقائق نظرتُ ثانية. الحادية عشرة.

الجلسة كانت تقترب مني، وأنا ثابتٌ في مكاني.

وقفتُ أفتّش ذاكرتي عن سطرٍ أخفيتُه، وكنتُ أعرف أنني لن أحتاج إلى بحثٍ طويل. كنتُ أعرف السطر منذ ثلاثين سنة. فقط لم أسمح له أن يقول اسمه.

صيف ستة وتسعين. قضية حريق مخزن الأقطان في المحلّة. المتّهم جابر عبد الموجود، حارس المخزن، رجلٌ بسيط ضخم الكتفين. وفي الجلسة الأخيرة وقفت طفلةٌ في التاسعة اسمها سامية، شبه ضائعة في ثوبها الكبير، وقالت للقاضي: «أنا شفت ابن صاحب المخزن شايل الجراكن بالليل، مش عمّ جابر.» وكتبتُ الجملة كما قيلت. ثم جاءني رئيس القلم كامل بك، وهمس: «امسحها. الطفلة متلخبطة. والقضية خلصت.» ومسحتُ. كنتُ ابن واحدٍ وعشرين عامًا، وراتبي لا يكفي لإيجار غرفة.

أخذ جابر خمس عشرة سنة.

ولم أنسَ الرقم الحقيقي للقضية: ٤٤١٧ لسنة ٩٦.

أمسكتُ الهاتف الأسود على مكتبي وأدرتُ رقم كامل بك، الرقم الذي لم أنسه أيضًا. ردّت زوجته بعد رنّتين، وصوتها كالورق القديم.

«كامل بك؟ يرحمه الله يا بني. مات سنة أربعة وألفين.» وسكتت لحظة. «لكن غريبة... كل يوم ثلاثاء الساعة الحادية عشرة يرنّ الهاتف عندنا ولا أحد يتكلم. أسمع فقط صوت قلمٍ على ورق، وماءً يسيل.»

وضعتُ السمّاعة. وفي اللحظة نفسها رنّ الهاتف على مكتبي. رفعتُه فلم أسمع إلا خدشة قلمٍ، وماءً يسيل، وأنفاسًا بطيئة تعدّ شيئًا ما.

كانت الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق.

لم يبقَ وقتٌ للخوف. أمسكتُ مفتاح السرداب من علّاقة المفاتيح، وكانت أصابعي تفوح برائحة الحبر، ونزلتُ إلى الأرشيف.

الأرشيف في سرداب المحكمة، تحت مستوى الشارع بطابقين. نزلتُ السلالم الحجرية وأنا أسمع الساعة الكبيرة في الأعلى تدقّ الحادية عشرة إلا خمس دقائق. لا أحد في الغرفة. لا أمين الأرشيف. ولا رائحة الورق الذي أعرفه، بل رائحة نهرٍ راكد.

وكان في أرض السرداب ماءٌ.

ماءٌ قليل، بالكاد يغطّي نعل الحذاء، رقيق ولامع كالزجاج. وبينما أقف، صعد إلى كاحلي.

مشيتُ بين الخزائن الحديدية أقرأ الأرقام الصدئة. ٩٣. ٩٤. ٩٥. في الدرج السفلي من خزانة ٩٦ كانت الملفّات منتفخة بالماء، وكل ملفٍّ يتحلّل بين أصابعي كخبزٍ مبلول. وجدتُ ٤٤١٧، وفتحتُه في الظلام الأخضر، فإذا الصفحة التاسعة بيضاء إلا من فراغ. فراغ بحجم سطرٍ واحد، أعرف حروفه كما أعرف خطّ يدي.

«النسخة الكربونية.»

قلتُها بصوتٍ عالٍ، لأننا في ذلك الزمن كنا نكتب المحضر بنسختين. الأصلية تُمسح بأمر رئيس القلم، والكربونية نرميها في قاع الدرج

لأنها لا تهمّ أحدًا.

والماء الآن في الركبتين.

خمّنتُ مكان الكربون: قاع الدرج، تحت قاعدة حديدية لا تتحرك. جرّبتُ سحبها فلم تتزحزح. الساعة فوق رأسي دقّت مرتين، لا أعرف لماذا مرتين. أخذتُ أحفر بأصابعي تحت القاعدة، ثم مزّقتُ كمّ سترتي ولففتُه حول يدي لأرفع الحديد، حتى انفتح جرحٌ في راحتي. وأخيرًا، تحت الصدأ والطين، رقٌّ رمادي رقيق مطويٌّ على نفسه كجناح.

فتحتُه تحت الضوء الأخضر الخافت. كان السطر هناك، بخطّي الصغير الشابّ:

«الشاهدة سامية: أنا شفت ابن صاحب المخزن شايل الجراكن بالليل، مش عمّ جابر.»

الماء بلغ خصري. طويتُ الورقة داخل قميصي على جلدي، وانطلقتُ نحو السلالم، والمياه تسحب ساقيّ كأيدٍ كثيرة. صعدتُ الدرجات على أربع. وفي أعلاها انغلق الباب الحديدي الثقيل

بصوتٍ مكتوم، ثم انفتح من تلقاء نفسه حين لمستُه، كأنه كان ينتظر أن أسلّمه شيئًا.

خرجتُ إلى الردهة مبلولًا حتى العنق، فلم يلتفت أحد. الموظفون يمرّون كأن شيئًا لا يحدث. وعلى مدخل القاعة الكبرى وقف رجلٌ ضخم الكتفين، شعره أبيض، يحمل صينية شاي كما كان يحملها كل صباح منذ أحد عشر عامًا: عمّ جابر، بوّاب الدور الأول.

نعم. عمّ جابر. بوّاب القاعة الذي لم أسأله يومًا ما اسمه بالكامل.

«الجلسة بدأت يا أستاذ فؤاد،» قال بهدوء لم أسمع مثله من إنسان. «من زمان.»

«أنت...»

«خرجتُ بعد اثنتي عشرة سنة بالعفو الصحي. لم أجد بيتًا ولا أهلًا. فجئتُ أحرس المبنى الذي حكم عليّ. أنا لا أقرأ الجداول يا أستاذ، أنا فقط أضعها على المكاتب.» وضع الصينية على كرسيّ ومدّ لي يده. «لا أطلب منك شيئًا. فقط ادخل. القلم ينتظر.»

دخلتُ.

القاعة الكبرى فارغة تمامًا. المنصّة خالية، والمقاعد مصطفّة كأنها تستمع. وفي الركن، على طاولة الكاتب، دفتر المحاضر مفتوحٌ على صفحةٍ بيضاء، وإلى جانبه قلمي القديم. وعلى المنصّة، فوق الكرسيّ الفارغ، مصباحٌ أخضر يتوهّج وحده.

جلستُ في كرسيّي. أخرجتُ الورقة الكربونية من قميصي، ومسحتُ الماء عن الدفتر بكمّي الممزّق، ثم كتبتُ السطر. كتبتُه بحبرٍ حقيقي، بيدي الجريحة، وبخطّ رجلٍ في الثانية والخمسين يرتجف:

«الشاهدة سامية: أنا شفت ابن صاحب المخزن شايل الجراكن بالليل، مش عمّ جابر.»

ثم وقّعتُ تحته، وكتبتُ الرقم والتاريخ.

لم يحدث شيء. ثم اشتعل مصباح المنصّة بضوءٍ أبيض، وهزّ القاعة صوتٌ بلا صاحب، عميقٌ كأنه خارجٌ من الجدران نفسها: «سُجّل.»

وانطفأ الضوء.

حين فتحتُ عينيّ كنتُ جالسًا على مكتبي في الغرفة، وصوت ممدوح يقول: «يا أستاذ فؤاد، الشاي!» والساعة تشير إلى الحادية عشرة وخمس دقائق. ثيابي جافّة. لا جرح في راحتي. وفي جيبي جدولٌ بأربعين قضية. من الأولى إلى الأربعين، لا يوجد صفر.

ضحكتُ وحدي. ثم رأيتُ على مكتب عمّ جابر عند الباب صينية الشاي، وجابر نفسه ينحني لي ويبتسم ابتسامة من انتهى من حملٍ ثقيل، ثم يمضي في الممر ولا يعود. سألتُ عنه فقالوا إنه لم يعمل هنا يومًا.

مرّ يومٌ كاملٌ بعدها كأيّ يوم. وفي الصباح التالي، حين دخلتُ المكتب، كانت المتدرّبة الجديدة نَدى جالسة وحدها، شاحبةً، وفي يدها ورقة. رفعت عينيها إليّ بالحيرة التي أعرفها جيدًا، وقالت: «أستاذ فؤاد… أنا لم أفعل شيئًا، صحيح؟»

أخذتُ الورقة من يدها، ولم أحتج لأقرأها.

«قضية رقم صفر،» همستُ لنفسي، وأنا أنظر إلى خانة التهمة، حيث كان الحبر لا يزال دافئًا: «سطرٌ لم تكتبيه بعد.»

ثم رفعتُ نظري إلى الساعة. كانت تشير إلى الحادية عشرة، وتتراجع.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app